صـــندوق الـكتاكيت

للاستاذ أحمد أمين

كان أمس ، من أيام الشتاء المشهودة : ريح صرّ ، وليل قرّ ، حتى خصرت اليـــد ، وقفقفت الأسنان ، ويبست الأطراف ، وتجلى « أمشير » بأجلى ما وسم به من هوج ورعن . حتى لو كان طفلا لسال لعابه ، أو رجلا لسقطت عنه التكاليف .

ثم انجلى الليل عن صبح بديع : سماء صافية ، وشمس مشرقة ، حاولت أن آتى لها بتشبيه جديد ، فكانت الشمس فى السماء أجل من كل تشبيه قديم وحديث .

غادرت حجرتى الى حديقتي الصغيرة المتواضعة فوجدت خادمى قد سبقت ، فاخرجت صندوق الكتاكيت الى الشمس لينعم مافيه بحرارتها ودفئها ـ وقع عليه نظرى ؛ وصادف ذلك منى تفكيرا فى موضوع للرسالة.

شعرت إذ ذاك بشخصيتين من نفسى تتناظران مناظرة عجيبة عنيفة أنجلها للقراء :

لم لا يكون (صندوق الكتاكيت) موضوعا طريفا ؟

إنه موضوع تافه لا يليق بأستاذ فى جامعة ، ولا بمدرس ، ولا بمساعد مدرس . ان الجامعيين وأمثالهم يجب أن تكون موضوعاتهم فى أعلى السماء ، أو أعمق الأرض ، ويجب أن تصبغ بصبغة ميتافيزيقية ، ويكون فيها الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والانيّة والعلية . أما صندوق الكتاكيت فموضوع يثير الهزؤ والسخرية ، ويستخرج من النفس عاطفة الازدراء والاحتقار

ليس ذلك بصحيح ، فكل شىء فى الحياة موضوع أدب ، وخير الأدب ما مس الحياة الواقعية ، واستخرج من تافه الأشياء فكرة بديعة ، أو رأياً طريفاً . لقد قال تعالى « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » والكتكوت خير من البعوضة من جميع الوجوه ، فالبعوضة منبع ألم ، والكتكوت منبع لذة ـ والبعوضة إذا كبرت كانت أقوى على اللذع وأقدر على الايلام ، بنفسها وبمنتجاتها ، والكتكوت اذا كبر كان دجاجة أو ديكا ، يســـيل لعاب الانسان اذا تصوره على مائدة أنيقة ، أو تخيله وقد أنضجه طاه ماهر .

وضرب الله الذباب مثلا فقال تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُفَ الطالب والمطلوب » وأين الذباب من الكتكوت ؟ وقد سميت فى القرآن الكريم سور منه بالبقرة والنحل والنمل والعنكبوت .

وقرأت لأديب كبير لا أذكره الآن مقالا بديعاً فى زنبار أراد أن يخرج من شباك فاصطدم بزجاجه ، وحاول مراراً أن يخرج فلم يستطع ، فاستخرج الكاتب من ذلك قطعة فنية طريفة فى الحرية والاسترقاق ، وكيف يبحث الزنبار عن حريته فلا يجدها ، ثم هو لا ينساها مهما صادفه من عقبات ، وتحمل من آلام .

وكتب فيكتور هوجو قصة طريفة عن برغوث أنقذ أمة من الأمم سلط عليها حاكم ظالم لم تستطع حمله على العدل ولا إبعاده عن الحكم .

وبعد هذا وذاك كتب مستشرق كبير معاصر كتاباً جمع فيه ما قيل من الأدب العربى فى « البراغيث » واقترح عليه مستشرق آخر أن يسمى الكتاب « صـــيحة المستغيث من البراغيث » الى ما لا يعد ولا يحصى .

إذن فنظرتك فى اختيار الموضوع رأسه يجب أن يكون « أكاديمياً » ، وأن يعنون عنواناً ضخماً يستعمل فى اختياره كل ضروب التكلف والتعمق والفلسفة ، نظرة أرستقراطية بغيضة يجب أن تتخلص منها وتهزأ بما جرى عليه العرف فيها .

على هذا النحو ظلت الشخصيتان تتناظران ، وظللت أصغى

اليهما وأقيد أفكارهما ، الى أن طال الاخذ والرد ، وأشفقت على القراء من استرسالهما فى الجدل ، وحاولت أن أبتعد عن الصندوق ، وأهرب من الموضوع فلم أستطع .

أيها الكتكوت افيك كل معانى الحياة ، مشاكلها ومظاهرها.

فاسمك - أولا - كتكوت ويجمع على كتاكيت ، ولم أدر من أين أتى لك بهذا الاسم ، فقد راجعت القاموس المحيط ولسان العرب ، وغيرهما من كتب اللغة ، فلم أجد فيها هذا اللفظ للدلالة عليك ، ولا يستعمله الا أهل مصر . أما أهل الشام والعراق فلا يعرفونه - أتعمدت اللغة إهمالك لحقارتك ؟ ذلك ما لا أظن ، لانى أعلم أن اللغة ديمقراطية تعنى بالجليل والحقير على السواء ، بل اللغة العربية مفرطة فى الديمقراطية فقد وضعت لآنفه الأشياء أسماء تعد بالمئات ، واحتقرت أشياء عظيمة فلم تضع لها اسما للآن كالراديو والبيانو ومئات من المخترعات الحديثة ، بل هم وضعوا لك اسما آخر هو « الفرخ » ولكن الفرخ غير مقصور عليك ، شاركك فيه كل صغار الطيور حتى استعملوه أحيانا فى صغار الشجر والنبات ، على انهم وضعوا لك اسم (الفروج) فلم يطلقوه على غيرك من صغار الحيوان ولكنهم أشركوا معك فيه نوعاً من الآدمية وأمثالها ولعل العامة كانوا أنصف لك فوضعوا لك اسما خاصاً ، ومن أولى التخصص منك ؟

ولكن - مع كل هذا - لا أدرى من أين أتى اسمك « الكتكوت » فسأتركك لعلماء اللغة والاشتقاق ومقارنة اللغات ، من سريانية وآرامية وفارسية وعبرية ، لعلهم يجدون لك أصلا - وعلى كل حال فقد أثبت أن فيك مشكلة من مشكلة الحياة العظمى وهى مشكلة اللغة ، وستثبت مشكلة أخرى أعظم من هذا وأعقد . فهب أن علماء اللغة استنكروا هذه الكلمة فأين سلطانهم على لفظك الذى تداولته العامة ونطقت به قرونا.

فهل اذا صدر قرار بمحو هذه الكلمة لأنها ليست عربية يسمع ويطاع . على أى وجه من الوجوه أنت مشكلة حتى فى اسمك

هذه هى الخادم قد رمت الحب للكتاكيت ، فلا تسأل عما كان بينهما من خصام ونزاع ، ومباراة وسباق وضرب وطعان

وهل الانسان الا هذا - وهل تاريخ حياته الا نزاع وصراع ، وقد عبروا عن ذلك أصدق تعبير فقالوا ، ان الحياة جهاد - أوليس أكبر باب فى كتب التاريخ هو تاريخ الحروب والفتوح ، واعلان الحرب ، ومعاهدات الصلح . وكل الفرق بينك ايها الكتكوت وبين الانسان أنك استعملت فى جهادك ونزاعك منقارك الوديع ، وجسمك اللين الغض وجاء الانسان الراقى ، فاستعمل فى الحصول على غذائه الكذب والخديعة والرياء والنفاق ، واستعمل فى مدافعة خصومه كل طرق الكيد والدهاء ، واستخدمت الجماعات فى حربها كل أنواع المدمرات والمهلكات - وقد أعطى الانسان عقلا أرقى من عقلك لينظم عيشه فأفسده ، ولينظم السلم فنظم الحرب ، وليعاون أخاه فعاداه .

- أيها الصندوق !

فيك تنازع البقاء وبقاء الاصلح ، فيك استكانة الضعيف وغلبة القوى ، فيك الضعيف يكره العراك ، وفيك القوى يصول ويجول ، ويدعو الى النزال - فيك الجمال وفيك القبح

- استأنست ايها الكتكوت بالانسان صغيرا ، ثم علمتك التجارب ففررت منه كبيرا .

وكنت مادة صالحة للغذاء كما كنت مادة صالحة للادب ، فمن قديم استعيرت منك الاستعارات اللطيفة ، والابيات الجميلة ، فقد قال الشاعر

أرى فتة هاجت وباضت وفرّخت

ولو تُرِكَتْ طارت اليها فراخها

وفى حديث عمر . ياأهل الشام تجهزوا لأهل العراق فان الشيطان قد باض فيهم وفرخ

ثم قالت العامة « الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح » وأخيرا ، فيك سر الحياة الغامض - كيف دبت الحياة فيك